



هي مرحلة اختلاط الحابل المحلي – الإقليمي بالنابل الدولي... وتشهد هذه الحال، كما تتراءى في سوريا، تنافساً محموماً لإثبات الوجود والنفوذ من دون تدخل عسكري مباشر (الولايات المتحدة من خلال الأكراد ومجموعة عربية رمزية في «قوات سوريا الديمقراطية»، بل إن بريطانيا سعت أخيراً إلى إبراز دور لها يتمثل بـ «جيش سوريا الجديد»)، أو بالتدخل المباشر سعياً إلى الحصول على موقع جديدة على الأرض والتحكم بـ «الحل السياسي» (روسيا من خلال غطائها الجوي وقوات «صقور الصحراء» وإيران بـ «الحرس الثوري» والميليشيات المستوردة وكذلك ميليشياها السورية المسممة «جيش الدفاع الوطني» بالإضافة إلى قوات النظام السوري)، أو الثبات في موقع أمكنت السيطرة عليها قبيل التدخل الروسي (فصائل المعارضة التي تعمل على موجات مختلفة وبمراجعات متناقضة وغير منسقة في الجنوب والوسط والشمال).

وفيما يشكل تنظيم «الدولة الإسلامية/ داعش» عنواناً لتفطية التدخل الأميركي (والبريطاني) كلياً، والروسي جزئياً، فإن موسكو بادرت منذ غاراتها الأولى (آخر أيلول/ سبتمبر 2015) إلى إبراز «جبهة النصرة» كعنوان رئيسي آخر لتدخلها، لكنها استخدمته تحديداً للتعمية على استهدافاتها الحقيقة: كل الفصائل المعارضة التي تقاتل نظام بشار الأسد. حاولت الولايات المتحدة وضع الدور الروسي في إطار ما عُرف بـ «تفاهمات كيري – لافروف»، لكن التدقيق في خط بلورة هذه التفاهمات منذ مرحلة «كلينتون – لافروف» (حتى بيان جنيف 30/06/2012) ومرحلة «الخبراء» التي سبقتها (2011) يُظهر أنها تغيرت تصاعدياً لمصلحة موسكو. ولا شك في أنها مرت بأهم مراحلها بين الاتفاق على تدمير ترسانة السلاح الكيماوي (أيلول/ سبتمبر 2013) وانعقاد مؤتمر جنيف (شباط/ فبراير 2014)، إلا أنها انقطعت بالتزامن بين فشل المفاوضات واندلاع الأزمة الأوكرانية. ولم تبادر واشنطن إلى استئنافها في أيار (مايو) 2015 إلا بعدما تأكد فشل الدور الإيراني في حسم الصراع فيما توصلت فصائل المعارضة بدعم تركي – عربي إلى طرد النظام من مناطق واسعة في الشمال. ولم يقنع الروس بالدعوة إلى تجديد «التفاهمات»، إلا بعد تقارير عن إجهاض تقدم للمعارضة من الجنوب نحو دمشق، ما أكد لهم أن

الأميركيين جادون في قبول، ولو مشروط، لبقاء نظام الأسد.

منذ ذلك الوقت أصبحت الكلمة الفصل في «التفاهمات» لموسكو، وهو ما تدعّم بتدخلها المباشر، إلا أنها وضعت محددات لدورها مستمدّة من تجربتها الأفغانية ولا تختلف كثيراً عن معارضته باراك أوباما إرسال قوات برية وعدم توريط جنوده في قتال داخلي.

أبدى الروس في البداية اندفاعاً إلى حسم عسكري عاجل لمصلحة النظام، لكن تعرّفهم عن كثب إلى طبيعة الصراع على الأرض، ومعاينتهم وضع الجيش وتبعيّته لإيران وميليشياتها، وكذلك تحليلهم لتشابك المصالح الإقليمية مع القوى المحلية، جعلتهم يتظاهرون بالاستجابة لضغط ودعوات أميركية وأوروبية والقبول بوضع «عملية سياسية» تضبط الأزمة الداخلية وتشكّل خلفية مناسبة ومساعدة لتفعيل «الحرب على داعش» وعلى «النصرة».

وهكذا بدأت لقاءات فيينا رباعية (مع السعودية وتركيا)، ثم وسّعت بطلب روسي وموافقة أميركية على ضم إيران خصوصاً، وهنا بدأت واشنطن مسلسل تراجعات تكيّف معها الأوروبيون بفعل موجات اللاجئين وتصاعد خطر الإرهاب الداعشي. وضعت واشنطن «مصير الأسد» في الواجهة للإيحاء بأنه خلافها الرئيسي مع موسكو، لكنها في الخلفية وافقت على التصور الروسي لـ «الحل السياسي»: فلا «هيئة حكم انتقالي» ولا «عملية انتقالية» أي لا مرجعية لـ «بيان جنيف»، بل «حكومة وحدة وطنية» تضم معارضين، ولا شرط على الأسد بل احتجام إلى دستور يعدّ و«انتخابات» تُجرى بإشراف «حكومته»، مع «إشراف من الأمم المتحدة» إذا كان هذا لا يزال يعني شيئاً في ظل التعاasse التي بلغتها منظمة بان كي مون وبمبعوثيه.

أرادت روسيا من لقاءات فيينا والدول المشاركة فيها أن تسجّل: أولاً، أن تدخلها في سوريا أسقط الخيار العسكري للمعارضة وأن هزيمة النظام (إيران، الموجودة إلى الطاولة) لم تعد هدفاً ممكناً. ثانياً، أن الحل السياسي ينبغي أن يخضع لميزان القوى العسكري، وبهذا المعنى فإن «الحكومة» والانتخابات» هما المخرج الوحيد المتاح للمعارضة، ولداعميه... كان ذلك إيداناً بأن الروس أصبحوا متحكّمين كلياً بالملف، ولتأكيده واصلوا عمليات القصف المستهدف للمعارضة المصنّفة «معتدلة» كونها العدو الرئيس للنظام ولحليفه الإيراني، ولم يبالوا بالقرار 2254 رافضين البحث في أي «هدنة» أو مساعدات إنسانية قبل الشروع في التفاوض، ووافقو على تغطية جوية لهجمات برية واسعة على حلب متوقعين أن تكون واشنطن «قامت بما عليها» مع المعارضة والدول التي تدعمها بحيث تكون الجولة الأولى في جنيف بداية تعبير عن استسلام مبكرٍ وعاجل وقبول بصيغة الحل السياسي وشروطه. وعلى رغم إقرارها لاحقاً، وعلى مضض، بوجوب إقامة هدنة تسهيلأً لانطلاق المفاوضات، إلا أنها تركت قوات النظام وإيران لتتولّ عملية الإسقاط التدريجي للهدنة.

طوال الأعوام الخمسة الماضية تبنّت روسيا تصوّرات إيران ونظام الأسد، وبدأ كل ما قامت به أشبه بـ «تكليفات» أسدية أو إيرانية، من الترخيص بأي تدخل الأميركي أيّاً كان نوعه، إلى إدارة الأزمة مع أميركا للتحكّم بأدوار الدول الأخرى، وصولاً إلى إقصاء تركيا وابتزاز الدول الأخرى، وأخيراً الحؤول دون انفراد الأميركيين بـ «الحرب على داعش» والضغط لاجتذابهم إلى حرب متزامنة ضد «النصرة» فتكون هذه الحرب الحاسمة ضد المعارضة.

هذا هو الحاصل الآن: إذ بدأ الأميركيون يتعرّفون إلى نتائج رهاناتهم في «الحرب على داعش»، استبعدوا النظام، لكن الروس يفتحون له وللإيرانيين طريقاً إلى الرقة، واستبعدوا المعارضة التي خذلوها ولا يمانعون ضربها وتصفيتها، واعتمدوا حسراً على الأكراد مع مجموعة «عرببة» هامشية، وكلّها خيارات تخلط الأوراق أو تمهد لتسليم الرقة إلى النظام، لكنها تجاذف بصنع البيئة المناسبة لإنتاج حالٍ أسوأ من تلك الداعشية التي يراد إنهاؤها.

لم يكن لروسيا يوماً أي مشروع حل متكامل ومبني على قرارات دولية شاركت في صوغها، وعندما شعرت بأن مقاطعتها للمعارضة تفصلها عن الواقع نظمت حوارات أدت إلى استنبط «معارضة موسكو» المطعمة بشخصيات سمتها الأجهزة الأسدية والإيرانية، وبعد تدخلها المباشر تبنت أيضاً «معارضة حميميم» الموالية كلياً للنظام. لكن التجربة بينت لها أن ثمة معارضة واحدة تستطيع أن تقيم هدنة مع النظام، وتستطيع وبالتالي أن تفاوض على حل سياسي.

فهذا هو الواقع الذي يخالف منطق روسيا وتفاهماتها مع أميركا، وبدل أن تعرفا به فضلتا منطق الأسد - إيران، أي مواصلة الحرب، وصولاً إلى كي هذا الواقع وتغييره ليتلاءم مع المخارج اللامعقولة التي طرحتها ل إنهاء الصراع. فالواقع هو، ببساطة، شعب ضد نظام، وروسيا وأميركا متفقان مع النظام، ضد الشعب، يتساوى في ذلك أن يقول مسؤولون روس بين حين وآخر إن الأسد لا يهمهم في شيء، أو أن يقول مسؤولون أميركيون أن الأسد فاقد الشرعية. إنهم يعاملونه بعكس ما يقولون، بعدما أدركوا بالتجربة أن النظام هو الأسد والعكس صحيح، أما الدولة فبات الروس يعرفون جيداً ما حل بها من تفكك واهتزاء وأفلاس.

في السابق، كان الأميركيون يحثون الروس على التخلّي عن سلبيتهم وتشجيع التفاوض بين الطرفين السوريين، وما حصل أخيراً أن لافروف خاطب كيري بلهجة لائمة، لأن واشنطن تتلّى في المواجهة على أن يدعو المبعوث الأممي إلى جولة جديدة في جنيف، بل إن الوزير الروسي اتهم المعارضة بأنها غير مهتمة بالتوصل إلى حل سياسي.

تكمن المفارقة في أن روسيا تبرهن يومياً أنها، مثل حلّيفها نظام الأسد وإيران، اختارت الحل العسكري في شكل واضح، وهو ما تؤكده الواقع الميدانية وخريطة القصف بالبراميل فضلاً على الإغارة على سوق العشارية في دير الزور وعمد قتل المدنيين فيها. لكن موسكو لا تزال تتوقع أن تأتي المعارضة إلى جنيف لتوافق على الحل الذي يطرحه النظام، وإذا لم تفعل فإن الروس سيفرضون ذلك الحل بالتعاون مع «المعارضات» الأخرى.

الحياة اللندنية

المصادر: